((إن العوامل البيولوجية هي عوامل حية تتكاثر من تلقاء نفسها (كالبكتريا) أو أنها قادرة على التكاثر فقط في خلية مضيفة (كالفيروس) أو هي عوامل غير حية بعضها غير قادر على التكاثر لأنه من مفرزات الأجسام الحية (ببتيدات، سموم) والبعض الآخر غير قادر أيضاً على التكاثر لأننا نحصل عليها بطرق الاصطناع الكيميائي))

المادة الأولى من اتفاقية حظر الأسلحة البيولوجية

obeikandl.com

obeikandl.com

تمهيد

بيولوجيا السهولة المميتة

إن ما يُدرجُ تحت مسمى السلاح البيولوجي غير معروف تماماً وغير مفهوم كذلك من قبل عامة الناس.

نُشر في العام ١٩٨٩ في مجلة (ملفات التاريخ) الفرنسية (رقم العدد ٦٨ ص ١٤١) مقال بلا توقيع وعنوان ساخر: (من أجل حرب قادمة حديثة وجميلة) يقول فيه كاتبه الذي أغفل ذكر اسمه:

(إن السلاح البكتيري هراء وهو من محض خيال العسكريين لا وجود له لأن الأمر يتطلب القيام بأبحاث في مجال الهندسة الوراثية والتقانة الحيوية على نطاق واسع لتحديد الوسائل الممكنة بهدف القضاء على كل ما هو حي، إن هذه الفكرة هي اليوم من ذهنيات العصور الغابرة، لا حاضر لها ولا مستقبل، حلم تدغده شطارة الإنسان).

ولكن الحلم هذا قد تحقق منذ زمن بالفعل في الكثير من البلدان وفي مقدمتها الدول الصناعية الكبرى، وهي التي كانت السبب في نشرها في بلدان أخرى قليلة الموارد حيث الفقر والمرض بالمرصاد.

إننا نعلم اليوم وبحسب تقديرات خبراء منظمة الصحة العالمية (١) أن استهداف مدينة من خمسة ملايين نسمة عن طريق نثر عصيّة الجمرة الخبيثة في أجوائها يؤدي إلى هلاك مالا يقل عن مئة وخمسين ألف شخص.

وأنه بتسميم شبكة مياه سعة ٢٠ مليون طن مثلاً بـ ٢٥٠ ميلليغرام فقط من الذيفان البوتوليني يؤدي إلى ظهور عشرات الآلاف من الإصابات خلال ٦ إلى ٨ ساعات، لا يحول دون موتها سوى إعطائها المصل الموافق بسرعة.. إذا توفر.

obeikandl.com

بدأ الإنسان مبكراً جداً في استعمال الجراثيم كسلاح في حروبه حتى قبل اكتشاف الجراثيم والفيروسات.

كان يستعمل حيلاً شتى كغمس رؤوس الرماح (٢) في الجثث المتغفنّة المتفسّخة أو في دم نتن محضون في حرارة المزابل مما كان يسبب لدى الضحايا مرض الكزاز والغرغرينا، كما عمد آخرون من بني آدم بتسميم نقاط المياه كالآبار والينابيع برمي جثث الحيوانات النافقة فيها.

وفي الولايات المتحدة نفسها وأثناء الحرب الاهلية وفي شهر تموز من عام ١٨٦٢ على التحديد أمر الجزال جونستون بدفع جثث الخراف والخنازير في نقاط ماء "العدو".

واجتهد البعض الآخر فترك وراءه في الحروب أغذية مسمومة، وهي من أفكار الإسبان (٣) في حربهم ضد الفرنسيين في حملة نابولي عام ١٤٩٥ حيث تركوا لهم في الميدان نبيذاً مخلوطاً بدم مرضى الخمج التناسلي (وربما الزهري) الذي كان بحارة كريستوف كولومب مكتشف أمريكا قد جلبوه في سراويلهم من هاييتي إلى أوروبا.

في حين أدى استعمال خمج الطاعون لأغراض قاتلة فادحة في أوروبا نفسها أدت إلى هلاك ما بين ١٥-٢٠ مليون ضحية (ثلث أو نصف عدد سكان أوروبا آنذاك بين عامي ١٣٤٨-١٣٥٠).

كان المغول قد حاصروا عام ١٣٤٤ جنوة طيلة ثلاثة أعوام وكانت الجيوش على وشك فك حصارها حين نال منهم الطاعون فأمر قائدهم (بقذف) جثث جنوده الموبوءة على البحارة في جنوة مما دفع هؤلاء إلى التراجع والفرار حاملين معهم المرض لينشروه في صقلية وفينيسيا ومرسيليا وهي حقبة الطاعون الكبرى: طاعون القرون الوسطى الأسود.

وفي بولونيا اقترح أحد العسكريين عام ١٦٥٠ حشو المدافع ببقايا الكلاب المسعورة وقذفها على العدو وقد استعمل الروس الطريقة نفسها فيما بعد في حربهم مع السويد وكانوا يقذفونهم ببقايا الجثث المصابة بالطاعون..

obeikandi.com

واستعمل الأمريكيون ثياب المرضى بالجدري لنشر الوباء في صفوف الهنود الحمر وذلك عن طريق إيصالها إليهم مع أغطية المرضى (عام ١٧٦٣).

بعد قرن من ذلك التاريخ وفي حصار باريز اقترح أحد الأطباء أخذ ٧٠٠٠-٨٠٠٠ غطاء سرير لمرضى الجدري ووضعها في ناقلة وتركها بالقرب من مخيمات الجنود النمساويين لتنتقل العدوى إليهم بعد أخذهم لها واستعمالها..

إن منجزات علوم الجراثيم هي التي مهدت اليوم لمنجزات ما يسمى بالحرب الجرثومية، فبعد قرون من المحاولات التجريبية البدائية بدأت هذه الحرب بالاعتماد على المعرفة العلمية الدقيقة للعوامل الممرضة من بكتريا وفيروسات ودراسة وتقييم قدرتها على العدوى وطرق انسلالها في جسم الإنسان وانتشارها فيه وكذلك سلوكيتها في الوسط الخارجي.

إن هذه البحوث والإنجازات كانت في الأساس ذات صبغة إنسانية خيّرة وسلمية ولكنّ الإنسان نفسه هو الذي أراد لها (بشيطانه) أن تنحرف عن ذلك لتصبح أداة إرادية للهلاك.

وكانت أولى ضحايا هذه الأداة الإرادية الأرانب التي عمد الاستراليون لفنائها بعصية كوليرا الدجاج عام ١٨٨٧ (بتلويث علفها عن عمد) لأنها كانت تغزو حقولهم..

والدكتور أوريان لوار (وهو حفيد لويس باستور) هو الذي زوّد الحكومة الاسترالية آنذاك بعصية الكوليرا، وحدث الأمر نفسه في فرنسا فيما بعد عام ١٩٥١، وكانت قد امتدت حرب إبادة الحيوانات بالجراثيم لتشمل الخنازير البريّة في تركيا وبلاد البلقان وألمانيا عام ١٨٩٣ بواسطة بكتريا السالمونيلا التيفيّة، وهي عصيّة قريبة من عصية حمى التيفوئيد (٤).

استعملت نفس الطريقة فيما بعد للقضاء على الجرذان في المغرب وفي موانئ عديدة من العالم في إطار مكافحة جائحة الطاعون آنذاك.

obeikandl.com

ثم امتدت هذه المكافحة البيولوجية لتطال الحشرات في القمح منذ عام ١٨٦٥ (٥) عن طريق فطور مجهرية والجراد عام ١٩١٥ في تونس والمغرب ببكتريا كوكو باسيللوس أكريد يوروم وقد نُشرت نتائج جميع تلك المعالجات في منشورات معهد باستور عام ١٩٣٥ (٦).

وهكذا وخلال عشرات السنين أخذت المكافحة البيولوجية التي تصوّرها باستور طريقها إلى التطبيق وبرهنت على نجاعتها على عدد متزايد من الأحياء وبات تطبيقها منذ ذلك الحين على الإنسان أمراً قادماً فانتظروه..

تعود الفكرة الأولى عن "الحرب الطبيّة" (كما كان يحلو لهم تسميتها أناقةً!) إلى رواية بعنوان "القرن العشرون" ظهرت عام ١٨٨٣ (٧) يحضّ فيها كاتبها واسمه ألبير روبيدا على الاستغناء عن الجيوش التقليدية وبدء عهد الحرب الطبيّة بإثارة المرض عن طريق قصف العدو بقنابل محشوة بالجراثيم فهي أرخص ثمناً ولو أنها تتطلب خبراء بالتأكيد لنشرها.

ويوجد الكثير من المجرمين الذين طبقّوا فيما بعد هذه الإثارة المرضية على ضحاياهم لمآرب شخصية دنيئة والقضاء في العالم حافل بسجل العديد من تلك الجرائم في إنكلترا وفرنسا والهند وألمانيا وغيرها..